Issn:2437-0967 مجلة اللغة الوظيفية
المجلد11،العدد1
2024

انسجام النص القرآني من منظـور مفهوم الدينامية

قراءة في مقاربة محمد مفتـاح

Harmony of the Qur'anic text from the perspective of dynamism

A reading of Muhammad Muftah's approach

د.علي تمطاوسين

ali_82tim2003@yahoo.fr

جامعة المدية

تاريخ الإرسال:2024/04/22	تاريخ القبول:2024/06/20	تاريخ النشر:2024/06/30

الملخص

تعرض هذه الورقة البحثية جانبا من جوانب توظيف المناهج النقدية الحديثة في التعاطي مع مباحث علـوم القرآن (وهو هنا مبحث النسخ والمنسوخ)، من خلال مفهوم الدينامية الذي بسط تطبيقا في كتاب دينامية النص للناقد محمد مفتـاح، وتناقش نتائج هذه الممارسة النقدية مع نتائج المقاربة التراثية لهذه القضية.

الكلمات المفتـاحية

النسخ، الانسجام، دينامية، مفتـاح، علوم القرآن، النص

Abstract

This research paper presents an aspect of employing modern critical approaches in dealing with one of the topics of Qur'anic sciences (which is here the topic of Nassikh and Manssoukh), through the concept of dynamism that was applied in the book The Dynamics of the Text by Muhammad Muftah, and the

results of this critical practice are discussed with the results of the old approach for this issue.

مقدمــة

شغلت لغة القرآن الكريم حيزا مهما في الدرس اللغوي العربي قديما وحديثا، ولئن انطلقت الدراسات التراثية من منطلق إعجاز النص القرآني في جانبه اللغوي، فإن الدراسات اللغوية المعاصرة اتجهت اتجاها يقـارب الظاهرة اللغوية القرآنية مقاربة تعتمد على منجزات الدّرس اللّغوي المعاصر، في مناقشة كثير من مباحثه (المفردة والجملة والنص والخطاب).

يعـد عنصر الانسجام من أبرز مباحث النصية، إذ بـه تثبت النصية أو تنتفي، وقد شغل اهتمام الكثير من الباحثين الذين كنوا يرومون إثبات إعجاز القرآن الكريم من هذه الزاوية، هذا المبحث له ارتباط مع عدد من قضايا علوم القرآن الكريم، مثل أسباب النزول والمكي والمدني، ولعل أجلى مظهر يتبدى فيه هذا الارتباط هو مبحث الناسخ والمنسوخ في القرآن، تبحث هذه الورقة مقاربة الناقد محمد مفتـاح رحمه الله لهذه العلاقة موظّفا مفهوم الدينامية وآليات النقد النصي ليبرر موقفـه من قضية النسخ في القرآن الكريم.

1- التكامل بين علوم اللغة وعلوم القرآن وفق الرؤية التراثية

يقصد بعلوم القرآن تلك العلوم والبحوث التي تسوّر القرآن الكريم، وتهتم بقضايا النص القرآني أو هي -كما عبر عنها الزرقاني-: "هي مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ومكيه ومدنيه ودفع الشبه عنه ونحو ذلك[1]، وهي كثيرة، إذ اعتبر برهان الدين الزركشي في كتابه **البرهان في علوم القرآن** أنها سبعة وأربعون(47)علمًا"[2]، بينما أوصلها جلال الدين

السيوطي في إتقانه إلى ثمانين(80) علمًا، وقال بعد سردها جميعاً:" فهذه ثمانون نوعاً على سبيل الإدماج ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة وقفت على كثير منها"[3]، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، علم رسم القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وعلم التفسير وعلم التجويد...الخ

وأغلب هذه العلوم لها ارتباطها الوثيق باللغة العربية وعلومها، وتراسل بينها، من ذلك:

- **ارتباط البلاغة العربية بالإعجاز** قديما وحديثا، فهذا الرماني يجعل إعجاز القرآن في وجوه منها "ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، التحدي للكافة، الصرفة، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، نقض العادة، وأخيرا قياسه بكل معجزة"[4]، وقال آخرون غير ذلك، لكنهم جميعا اتفقوا على أن البلاغة وجه من وجوه الإعجاز.
- **تراسل علم التفسير مع علوم اللغة:** ذلك أنه لا يخلو كتاب تفسير من مباحث اللغة نحوا وصرفا وبلاغة، حتى إن أول تفسير وهو جامع البيان لابن جرير الطبري حوى من الإشارات اللغوية ما جعل الدارسين يصنفونه ضمن التفاسير اللغوية، أما الزمخشري وكشافه فينتصبان علامتين بارزتين تعكسان هذا التظافر المنهجي والمعرفي بين علوم اللغة جميعا والبيان تخصيصا مع علم التفسير.
- وفي الصوتيات استفادت بحوث هذا العلم من مباحث القراءات كمخارج الحروف وصفاتها.

إلى أوجه كثيرة من التداخل ليس المجال لبسطها، إنما اكتفينا بالإشارة قبل الولوج إلى ما نحن بصدده، من طرق التعاطي مع هذه المنظومة المعرفية بين متوسل أدوات التراث وآخر يوظف المناهج الحديثة.

2- حظ علوم القرآن من المناهج النقدية الحديثة.

2-1 علوم القرآن والمناهج التقليدية

بقي عدد من الدارسين لعلوم القرآن وفيّاً للخط التقليدي في مقاربة قضايا النص القرآني معولّين في ذلك على علوم اللّغة العربية وفنونها، وفق مستويات: المعجم، التركيب الصوت، والدلالة، لوحظ ذلك في عدد من المدونات التفسيرية المعاصرة في المغرب العربي، وفي غيره من الأقطار، مثل صنيع محمّد الطّاهر بن عاشور في التحرير والتنوير الذي غلب عليه النّفس اللّغوي، إذ يعد أكثر التفاسير المعاصرة التي يتجلى فيها التظافر بين علوم اللغة العربية وعلم التفسير، وكذلك فعل المفسّر الجزائري الشيخ التواتي

بن التواتي في الدر الثمّين، وعبد الله كنّون في تفسير المفصل، وهو ما عناه الحبيب مونسي حين لاحظ أن "التفاسير على تلونها واختلافها، قراءاتٍ استندت إلى مناهج مختلفة في إطلالتها على القرآن الكريم. تعتمد المأثور، والرأي والإشارة، وتتّجه أخرى إلى اللّغة والبيان، في محاولات جادة للوصول إلى المعجز في نصّه"[5].

2-2 علم القرآن والمناهج الحديثة

ومع تأثر الفكر اللغوي العربي بالوافد الغربي أفكارا ومناهج، غدا طبيعيا أن يستعين المشتغلون بقضايا علوم القرآن من المعاصرين بالعدة المنهجية المعاصرة، بعدما درج النّاس على المقاربة التراثية التقليدية المعروفة في مجال علم التفسير، كالتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أو التفسير اللغوي وغيرها من أنواع التفسير، غير أن الطفرة المنهجية التي طرأت على ساحة اللغة والأدب، مستعينة بطرائق جديدة في مقاربة النصوص الأدبية شعرا ونثرا، دفع ذلك فريقا من النقاد والدارسين إلى تطبيق هذه الأدوات الجديدة على النص الديني، (القرآن على وجه الخصوص)، فأصبح درس التفسير ساحة لتطبيق نظريات دو سوسير وغريماس وتشومسكي، اعتمدت هذه الدّراسات الحداثية عناوين بديلة عن المصطلحات التّراثية التي تشير إلى علم التفسير، مصطلحات حديثة غدت عناوين لحقول معرفية جديدة في المنظومة الحداثية في علوم القرآن، من قبيل "تحليل الخطاب القرآني"، "قراءة النصّ القرآني"، "تأويليات النصّ القرآني"، فلاحت مشاريع مهمة في هذا الإطار، على الصعيد الفكري والفلسفي والنقدي، مشاريع لأمثال الجزائري محمّد أركون والتونسي عبد المجيد الشرفي والمغربي محمّد عابد الجابري وغيرهم، ثمّ لم يبق هذا الاتّجاه حكرا على المفكّرين والمشتغلين بالفلسفة، فانتقل هذا الهمّ المعرفي إلى ساحة النقد الأدبي، ووُجِد من النّقّاد الأدبيين من خاض هذا المجال، على تفاوت في التطبيق والحدّة، والهدف، يتصدر نقّاد المغرب العربي قائمة المهتمين بتحليل الخطاب القرآني على تفاوت بينهم، من هؤلاء: محمّد مفتاح، سعيد بنكراد، وعبد الملك مرتاض وحبيب مونسي وسليمان عشراتي ومحمّد طول وبسّام الجمل.

3- محمد مفتاح وقضية النسخ في القرآن من منظور دينامي

يبدو مفهوم النسخ في الطليعة من قضايا علوم القرآن الكريم، وقد سال فيها حبر كثيرٌ في المدونة الأصولية، كما اشتبك معها المعاصرون شرعيون ولغويون ومفكرون، ولا بأس قبل الخوض فيما

نحن بصدده من تعاطي الناقد محمد مفتـاح معها، لا بأس قبل ذلك من الوقوف على هذه القضية وتسليط بعض الضوء على الخلاف فيها.

1.3 : في مفهوم النسخ والخلاف فيه

لغة: يطلق لفظ النسخ في لغة العرب على معنيين اثنين هما[6]:

الأول: النسخ: هو النقل والتحويل، كقوله :نسخت الكتاب، أي :نقلته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية29]، ومنه التناسخ في المواريث، فإنه نقـل الميـراث من وارث إلى آخـر.

والثاني :النسخ: هو الإبطال والإزالة، ومنه :نَسخَتِ الشمس الظل، ونسخت الريح آثـار القـدم، أي :أزالته ورفعته، ومنه تناسخ القرون والأزمنة، أي :إزالتها ورفعها، وأكثر العلماء على أن النسخ حقيقة في الإزالة والإبطال، مجـاز في النقل والتحويل، وقيل غير ذلك .

اصطلاحا: عرفه علماء الأُصول بتعريفات كثيرة، أشهرها: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر.

وقد ألف العلماء منذ الصدر الأول في علم الناسخ والمنسوخ في القرآن كما هو الشّأن مع أبي جعفر النحاس، وهبة الله الضرير، وابن العربي وابن الجوزي وغيرهم.

هذا، ويشير أحد الأصوليين إلى أن "ما جاء عن السلف فيما سمَّوه (نسخا)، يجـد أن كثيرا منه ليس من النسخ المعروف عند المتأخرين في شيء، والآفة هنا تأتي دائما من إطلاق المصطلحات الحادثة على المصطلحات القديمة، مع تغايرها وتباينها في المفهوم، فقد كان المتقدمون من العلماء يريدون بالنسخ ما قد يسميه المتأخرون تخصيصا للعام أو تقييدا للمطلق، أو تفسيرا للمجمل، أو غير ذلك، ولا يعنون به "رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر..." وفي هذا المعنى يقول أبو إسحاق الشاطبي: "الذي يظهر من كلام المتقدِّمين: أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد كانوا يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا. كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل متأخر نسخا، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد"[7].

وهكـذا تتمايز فرق ثلاثـة في الموقف من النسخ ووقوعه في القرآن الكريم بين فريق يمثل غالبية الأصوليين والمفسرين يثبتون وقوعـه، بينما ينكـر فريـق آخر وقوع النسخ في القرآن بالكلية، مثل أبي مسلم

الأصفهاني[8]، في حين ينتصب فريق ثالث يقلّل منه حتى يجعله في بضع آيات فقط كالفقيه المعاصر مصطفى في زيـد في رسالته النسخ في القرآن الكريم.

ومما استدلوا به وهم يناقشون تفسير المثبتين للنسخ لقوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة:106]، قال بعضهم: هذا في النسخ ما بين الشرائع بعضها وبعض، فمن المقرَّر المعروف: أن الأديان السماوية كلها متفقة في أصولها العقدية، ولكنها مختلفة في أحكامها التشريعية، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة:48].

بينما يرى فريق آخر من المعاصرين منهم الشيخ محمد عبده حيث فسَّر كلمة {آيَةٍ} في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ بأن المراد بها: الآية الكونية، مثل الآيات التي أيَّد الله بها رسله قبل محمد عليه الصلاة والسلام. وأيَّد ذلك بأن الآية ختمت بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:106]، وهذا التذييل يناسب الآيات الكونية وإلا لكان الأنسب أن يقال مثلا: ألم تعلم أن الله عزيز حكيم، أو عليم حكيم. وكذلك قوله بعدها: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة:108]، وقد سألوه آيات كونية، مثل قولهم: ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:153][9]، وهو معنى جميل وتفسير بالسياق وإن ذهب غير مذهب أئمة التفسير القدامى.

والرأي الذي نميل إليه وتشهد له شواهد كثيرة، مـا ذهب إليه الشاطبي حين قرر أن "غالب ما ادُّعي فيه النسخ إذا تُؤمل وُجـد متنازَعا فيه، ومحتمَلا، وقريبا من التأويل بالجمع بين الدليلين، على وجه من كون الثاني تفصيلا لمُجمل أو تخصيصا لعموم... إلخ"[10].

أما نسخ القرآن للسنة أو نسخ القرآن لبعض ما في التوراة والإنجيـل وشرائع من قبلنا، فيكاد محلّ إجماع بين علماء الأصول والتفسير.

2.3 محـمّد مفتـاح: النّـسخ وانسجام النّـص القـرآني

يضع محمد مفتـاح قضية النسخ تحت مسطرة العدة المنهجية المعاصرة من خلال مفهوم الدينامية ليثبت انسجام النص القرآني، وقد كان هذا المفهوم مادة لعديد البحوث ضمن مباحث علم المناسبة (وفق المقاربة التراثية) أو ضمن مباحث لسانيات النص (وفق المقاربة المعاصرة).

أما محمد مفتاح فهو ناقد اجتهد في توظيف عدد من المفاهيم والنّظريات والمناهج العلمية واستثمارها – عمليا– في قراءة النّصوص، معتبرا أن الابداع في مجال الإنسانيات لا بد أن يمر حتما على التقدم في العلوم الدقيقة، إذ قال مرة في حوار جمعه مع نخبة من النّقاد: "إن التقدم في ميادين العلوم الإنسانية رهين بالتقدم في العلوم البحتة، والنتيجة المنطقية هي أن التقدم في ميدان البحث الأدبي مدين لهذه العلوم، لذا، يبدو بعيد المنال جعل مصطلحات الأدب كاملة الانفصال عن هذه العلوم"[11]. وهذا ما نلمسه في مختلف أعماله دعوة وتنظيرا وممارسة، كما توفّر لمفتاح ثقافة واسعة ومتنوعة من مختلف ميادين الدّراسة الانسانية، ما سهل له دراسة الثّقافة العربية في تفاعلها مع الآخر، ويعتبر أن السيميائيات هي المنهج الذي "وفر له الإلمام بجميع الخلفيات الابستمولوجية والتّاريخية للنّظريات التي حلل في ضوئها الأعمال الأدبية"[12].

تتميز أفكار مشروع محمد مفتاح بأنها "تستند إلى فكر مؤصّل، متعدد المشارب الشرقية والغربية، القديمة والحديثة، كما أن صاحبه حاول توظيف كلّ الحقول المعرفية التي اطلع عليها ".. محذرا من "الإسقاطات المنهجية والمفاهيمية، على اعتبار أنّ النّص له من الوعي البنيوي ما يمكنه من اختيار المنهج الملائم وكذا المفاهيم"[13].

ولقد سجّل الباحث "فريد أمعضشو" وهو يعرض تجربة محمّد مفتاح النّقدية في كتاب دينامية النّص ملاحظات مهمة بلورها في ثلاثة محاور أساسية[14]:

1– مفتاح وهاجس التركيب المنهجي.

2– مفتاح والاستيحاء من العلوم.

3– جدلية التنظير والممارسة في نقد مفتاح.

يلاحظ كلّ من قرأ كتاب دينامية النّص أن صاحبه اعتمد في تحليلاته النّقدية منهجا مركبا يقوم على تكامل مجموعة من المناهج، إذ استعمل الرجل إلى جانب المنهج السيميائي– وهو المنهاج البارز في الكتاب –نظريات ومناهج أخرى كالمنهج الأسلوبي واللسانيات والتداولية والحوارية وجمالية التلقي...[15]. والحقيقة أن هذا التوجه المنهجي يميز أغلب كتابات مفتاح، فرحلة مفتاح النّقدية شهدت "عدة منعرجات منهجية تنم على استيعابه التام في تعميق رؤاه في المناهج النّقدية وتطويرها باستمرار

ضمن مراحل تحسس من خلالها المناهج النّقدية في شكلّها الانتقائي ساعيا إلى اعتماد سمة التركيب والتكامل المنهجي، ومن ثم العودة إلى مقاربة النّصوص وفق مناظير تقليدية تغلب عليها المناهج السياقية[16].

ويعد مفهوم الدينامية واحدا من أهم المفاهيم التي ركز عليها محمد مفتاح بحوثه المتقدمة باعتباره منعكسا لعمليات التحول داخل النسق، في محاولة لتجاوز الانغلاق البنيوي في التحليل، فـ "هذا المفهوم ينظر إلى الخطاب في بدايته ونموه ونهايته وآليات انتظامه كما ينظر إلى الكائن الحي في صيرورة مراحل عمره من حيث تعاونها وتنافرها وتساندها وتصارعها...". حاول من خلاله أن يتجاوز "بطرحه الدينامي الانغلاق البنيوي في التحليل ليشيد تحليلا بنيويا أكثر انفتاحا، يهتم بمقاصد الكاتب، وهيئة الخطاب، ومقتضيات الأحوال، وربط النص بخلفياته المتعددة"[17].

وكتابه هذا (دينامية النص) تفكيك لهذا المفهوم وبسط له تنظيرا وتطبيقا، إذ استهله بمدخل نظري بين فيه الخلفيات العلمية والفكرية والمعرفية التي يستند عليها منهجه في مقاربة النّصوص، حيث ركّز على أهمية التمهيد لأي بحث تطبيقي بالخلفيات المعرفية والتاريخية ذات العلاقة، حيث "لم يبق مستحسنا- بعدما بدأت المناهج الحديثة تشيع بين المهتمين، والطلبة، وعموم المثقفين- أن يكتفي الكاتب فيها بتقديم تطبيقات بدون الكشف عن الخلفيات الابستمولوجية والتاريخية التي نمت وترعرعت فيها تلك المناهج، وإنّما صار متعينا عليه أن يبين قواعد اللعبة وآلياتها، ويهتك خبايا أسرارها"[18]، مذكرا بتغلغل البيولوجيا في مختلف ميادين المعرفة لكنّه سيركز في بحثه على اعتلاقها بعلم النّص وديناميته من خلال اتجاهاتها الستة:

1- النظريّة السيميوطيقية اين اتضح له أن نظرية غريماس تقوم على الدينامية والتفاعل والصراع... بما تعنيه من حركة وأحداث وأعمال أفعال... وهذا شيء لا غرابة فيه لأنه استقى أسس نظريته من تحليل الحكايات الشعبية والأسطورية...".

2- أما النظرية الكارثية فكان همها أن تبحث عن الاستقرار والتحول في آن واحد.

3- نظريّة الشكلّ الهندسي.

4- نظريّة الحرمان.

5- نظريّة الذكاء الصناعي.

6- نظريّة التواصل والعمل.

مشيرا إلى الخلفيـات التي تقف وراء كلّ نظريّة، وملاحظاً أن "ثلاثـة ثوابت مهمة تقف وراءها جميعا:

أولها: بيولوجية النّـص بما تحتويه من مفاهيم الانتقاء والطفرة والتوازن وانواع النفي والتنظيم الذاتي..

وثانيها: استغلال علم الرياضيات وخصوصا الهندسة لتوليد المفاهيم وخلق النظريات وضبطها..

وثالثها النزعة الفلسفية التوليفية أو التجريبية المحضة"[19].

وفي السّؤال عن مدى ملاءمة هذه المفاهيم الغربية المنشأ مع الثقافة العربية الإسلامية ذات الخصوصية المعروفة، مـال إلى القول بعالمية وإنسانيـة تلك النّظريات ورأى أنه: "بهذا المنظور يمكن أن نوفق بين المكتسبات العلمية العالمية ليصير لنا علم للنصوص، وبين الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الثقافة القوميـة وتفرد النّـص وتميزه داخـل الثقافة وداخـل الجنس الأدبي نفسه"[20]، طامحا إلى علم للنصوص خاص بنا في إطـار الخصوصية الثّقافية العربية.

وبعد هذا المهاد النظري الذي شغل جزءا مهما من كتابه، عطف إلى القسم التطبيقي جاعلا إيّاه ستة فصول، تناول في آخرها قضية الانسجام في بعض الآيات القرآنية الكريمة.

واذا كان الجزء الأول الذي بذله في تحليل الخطاب الأدبي شعره ونثره، فإن الأمر حين يتعلق بتحليل الخطاب القرآني تشوبه مخاطر غير قليلة، وقد أقر مفتاح بما ينتظره من عقبات وصعوبات، لذلك اعتبر محاولته التحليلية –هذه– "ضربا من المغامرة الفكرية المحفوفة بكثير من المخاطر"[21].

يبدأ مفتاح دراسته بالوقوف عند مفهوم النّسخ، واختلاف الدارسين حوله بين مثبت ومنكر ومفصل، ويصرح بداية أنّه يميل إلى القول بعدم وجود "النّسخ الإبطالي"(سنفصل فيه لاحقا) في القرآن الكريم، مذكّراً أنّه لا يتقمص هنا دور الداعية ولا وظيفة الواعظ، إنّما يوظف خبرته في تحليل الخطاب للبرهنة على مذهبه"[22].

بعد إقرار مذهبه، يصرح بالمبادئ التي سيرتكز عليها في التحليل النظري، وهي[23]:

1- اعتبار آراء السلف (بالأخص الصدر الأول) في قضية الناسخ والمنسوخ في القرآن، مهملا الآراء الأصولية المتأخرة التي اعتبرها نتاج للصراع الفكري بين مفكري الإسلام ومفكري الأمم الأخرى (اليهود خاصة).

2- استثمار المناهج اللسانية والسيميائية والتداولية: باعتبار النّص القرآني كلّا لا يتجزأ، لأنه يهدف إلى غاية واحدة وإن تنوعت مظاهر تعبيره، وينطلق من فلسفة منسجمة وإن تبين للناظر إلى سطح الأمور تنوعا في القضايا. ويجب التسليم بأن الآيات التي تدور حول قضية وإن وجدت في مواطن متفرقة من المصحف لها ثابت بنيوي واحد تنطلق منه، لتفصله أم تكمله أو تبينه في الآيات المكية، أو لتخصصه أو تقيده في الآيات المدنية، لكنه، مهما كان الحال فإنها لا تناقضه، وكذلك الأمر في الآيات التي تتحدث عن قضية واحدة (آيات الصيام مثلا..)، ويمكن أن تدعى هذه الوشائج بالعلاقات الداخلية. ومراعاة مقتضى الاحوال التي نزل فيها القرآن، ومجالها التداولي وزمانه أي علاقات النّص القرآني بالشرائع والعادات والاعراف السابقة والمعاصرة ونستطيع أن نطلق على هذه العلاقات اسم العلائق الخارجية.

والملاحظ أن هذه المبادئ ترجع إلى رافدين رئيسين في المنظومة الفكرية التي انطلق مفتاح منها في مقارباته، هما: الثقافة العربية الإسلامية الأصلية، ونتائج الدراسات الحديثة، إذ يظهر مفتاح في هذا الكتاب وفي غيره (كتبا أو بحوثا) عناية خاصة بالمدونة الأصولية والتفسيرية واللّغوية، زيادة على تحكمه في العدة المنهاجية الحداثية، وحين يرجع إلى كتب التراث مثل مثل كتاب (الروض المريع) لابن البناء وكتاب(المنزع البديع)، وكتاب (التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات) لابن عميرة فإنه يجزم بأنها مؤلفات "اعتمدت أيضاً على مبادئ وقواعد لفهم كلّ أنواع المخاطبات ومؤيدات تؤدي إلى الفهم السليم والتأويل الصحيح"[24]، كما اعتمد في هذا دراسته على كلّ من (فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من اتصال) و(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) لابن رشد و(الموافقات) و(الاعتصام) لأبي إسحاق الشاطبي.

ومن أجل إخراج هذه المبادئ من حيز التنظير إلى التطبيق، اعتمد بعض المفاهيم الإجرائية، مثل: المقصدية، والمماثلة والمشابهة، ونوع العلاقة، إذ يعين المفهوم الأول على اكتشاف ما يختفي وراء الخطاب من معتقدات ومقاصد، ويساعد المفهوم الثاني على تبين عناصر المماثلة بين الخطاب القرآني ومحتويات الديانات والأعراف والعادات السابقة والمجايلة له، ويرصد المفهوم الإجرائي الأخير علاقة الخطاب القرآني بغيره.

أولا: المقصدية: وقصَد بها هنا (في مقام الخطاب القرآني) مقصدية كلّ من المخاطب والمخاطب وظروف التنزيل، إذ أن "كلّ محلل للخطاب للقرآني في نظره ملزم بأن يراعي تلازم هذه الأركان الثلاثة: مخاطب يأخذ مبادرة الحديث، ومخاطب يكون له تأثير في اختيار المخاطب ألفاظه وتعابيره وأسلوبه وظروف جرت فيها عملية الخطاب، مما يؤدي إلى نجاحه أو فشله"[25]. فالمخاطب: الذي هو النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام، الذي تواصل مع النّاس بلسان عربي مبين، على ما هو معهود من لسان العرب وجار في خطابها. وتتجلى مقصديته في "مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى[26]. والمخاطَب (المتلقي): الاهتمام بالمخاطب هو المنحى الذي انتحاه الدّرس اللّغوي الحديث ممثلا في التداولية في اعتماد قرائن السياق والمقام"[27]، لاحظ مفتاح أن اغلب الدارسين الإسلامين لم يولوا كثير عناية لدور المخاطب في تكييف عملية التخاطب إلا ما ورد في قولهم: إن الشريعة جاءت لرعاية مصالح المكلّفين أو مراعاة مقتضى الحال حين فرقوا بين المكي والمدني.

وفيما يأتي بعض الإشارات التي تدل على أن الشريعة ركزت على مسألة مراعاة أحوال المكلّفين وظروف التنزيل من ذلك[28]:

- ✓ **لغة التنزيل:** فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين على ما هو معهود من لسان العرب وجار في خطابها.
- ✓ **نزول القرآن منجما على سبعة أحرف:** أما نزوله مفرقا فلأن المتلقين لا يطيقونه لو نزل جملة واحدة، فنزوله منجما: منه ما كان حسب الحوادث والوقائع والسؤالات، ومنه ما كان ابتداء. أما نزوله على سبعة أحرف فالغاية منه مراعاة أحوال المكلّفين، وفي هذا يقول مفتاح: "وكان الرسول في هذه المدة يواجه أناسا متعددي المعتقدات ومتنوعي الثقافة ومختلفي البيئة، وتبعا لهذا الاختلاف كان الرسول يكيّف خطابه الموحى إليه به حسب نوعية المخاطب.." ويفرق بين نوعين من المتلقين عن الرسول الأكرم: النوع الأول هم جلة الصحابة الملازمين له، سكنة المدينة أمثال أبي وبكر وعمر وعلي(...) الذين تكفيهم "اللمحة والاشارة لفهم المقصود"، بسبب المعرفة المشتركة بينهم وبين الرسول، أما الصنف

الثاني فكان يمثلهم الأعراب وأهل البادية الذين يضطر النبي "لأن يفصّل ويوضّح ويضرب الأمثلة المستقاة من البيئة حتى يحصل الادراك والفهم"، من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يُلين القول للأعراب، ثم هو قد يشتد في القول على بعض أصحابه الأقربين"

- ✓ **مراعـــاة التدرج فـي تقرير الأحكام**
- ✓ **مراعـــاة المألوف المعهـود المقبول** من الأخلاق الجارية بين الناس.
- ✓ **تأسيس مقصد الإذعـــان للشرع** والخضوع له بمراعاة حاجة النفس إلى الترغيب والترهيب، بحسب مقتضى الحال. وفي إجابته صلى الله عليه وسلم على سؤال تكـرر عند الصحابة عن أي الأعمال أفضل؟ كان يجيب تارة الجهاد وتارة الإيمان وتارة الصلاة ذلك، فتختلف الاجابة باختلاف السائل (المخاطب). "فإذا كان المخاطب ممن له تأثير في القتال وقوة على مقارعة الأبطال قيل له أفضل الأعمال الجهاد وإذا كان كثير المال قيل له أفضل الأعمال الصدقة ثم كذلك يكون الاختلاف على حسب اختلاف المخاطبين[29] .

ليستنتج مفتاح أن "أسلوب القرآن تكيّف بحسب نوعية مخاطبيه، وبحسب القضية المتحدث عنها والسياق الذي دار فيه"[30]. ويعني بالسياق الذي دار فيه "ظروف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مكة والمدينة وتكيف الخطاب بحسب كلّ مرحلة"، إنّما أوردها ليبني عليها لاحقا موقفه في قضية النّسخ في القرآن.

ثانيا: المشابهة والمماثلة: وهو وسيلة ضرورية لإشراك المخاطب وتوقع ردود فعله حيث يوظّف هذا المبدأ في محاولة حلّ المشكلّ الذي هو بصدده.

ثالثا: العلاقة بنوعيها العلاقة الخارجية والعلاقات الداخلية.

أما الخارجية فقصد بها مفهومين كبيرين هما التعضيد والرفع، التعضيد مثل له بشرع من قبلنا والرفع مثل له بما خالف شرعنا، ثم ركب بين مفاهيم التعضيد والرفع والمقصدية والمماثلة والمشابهة والعلاقة، فنتج له ست عشرة حالة انتقى منها خمس حالات متعلقة بموضوع النّسخ وهي:

- ✓ أقصى حالات التعضيد: مثل لها بآيات القصاص.
- ✓ أوسط حالات التعضيد: آيات الصوم.

- ✓ اقصى حالات الرفع رفع المعتقدات اليهودية والمسيحية المتعلقة بالألوهية.
- ✓ أوسط حالات الرفع آيات نسخ بعض المحرمات اليهودية وإباحتها للمسلمين.
- ✓ حالة خامسة تحتمل التعضيد حينا والإبطال والنقض حينا آخر مثل حكايا القصص الواردة في القرآن.

وأما **العلاقات الداخلية:** فميز بين العلاقات المرفوضة والمقبولة، فرفض علاقة التناقض ورأى أن التناقض بمعناه المنطقي الدقيق ليس موجودا في القرآن، أداه هذا إلى القول بنفي النّسخ الإبطالي الذي سيوقعنا في التناقض، واعتبر القول به ومتابعة القدامى في ذلك يوقعنا في ضرر كبير "إذ لا يلبث مخالفوهم أن يوافقوا عليه ليحللوا القرآن على ضوء المنهاجية التاريخية الجدلية .."[31]، واقترح في مقابل ذلك القول بالبيان والتفصيل والتكميل والتخصيص والتدقيق للآيات الواردة في الضروريات المجمع عليها من سائر الأديان.

يبدو من التفصيل المذكور في كلّامه في النّسخ أنّ مفتاح لا يرى حرجا في النّسخ الإبطالي بين الإسلام وما سبقه من ديانات، أمّا النّسخ بمعناه الأصولي فلا يصح داخل القرآن ذاته، لقوله الله تعالى ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء:82].

أما **العلاقات المهيمنة** فاختزلها في مفهومين أساسيين هما التنمية والنقص، فيعني بمفهوم التنمية "تنمية قضية كلّية أو فكرة ما بتقليبها في صور مختلفة، إن على مستوى الخطاب القرآني جميعه، أو إن على مستوى آيات متتابعة تحتل فضاءً واحداً"، وهو ما يعبر عنه في علوم القرآن بالآيات المتشابهات في القرآن. أما المفهوم الثاني فهو النّقص أي تخصيص العموم وتقييد المطلق.

ثم عرض وجهة نظره لمبدأ التدرج في التّشريع ومبدأ تأخير البيان عن وقت الحاجة، مخالفاً عددا الأصوليين في رؤيتهم لهما.

ومضى يبرهن على اختياراته وعلى انسجام النّص على مرحلتين:

في المرحلة الأولى اختار نموذج آيات الصّيام (183–188 من سورة البقرة)، التي وردت في فضاء واحد متصل بعضها ببعض. وفي المرحلة الثانية عمد الى آيات متفرقة من المصحف الشريف ظاهرها التعارض وما هي كذلك.

فرفض دعاوي النّسخ التي ذكرها الأصوليون والمفسّرون وهم يفسرون هذه الآيات، وبين أنّ هدفه من ذلك هو الدّفاع عن انسجام النّص القرآني، موافقا المنكرين للنّسخ إذ كان همهم التّقليل من القول بالنّسخ والاعتماد على انسجام النّص (أو ما أسماه بعلم المناسبة) بديلا عن ذلك.

ومن ثم، وظّف آليات المناهج النّصية في البرهنة على انسجام النّص من خلال إطار نظري يسعى إلى إثبات انسجام الآيات على مستوى المعجم والتركيب والدلالة والتداول،(الكلّمة المحور (الصيام)، والثابت والبنيوي (الجملة المنطلق: آية يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيام...الآية، فما جاء بعدها بيان وتكميل وتفصيل)، الجملة المكثّفة (تلك حدود الله) وأخيرا الجملة الهدف "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر") .

كل هذا لم يكن قاصدا به تفسير آيات الصيام وإنما إثبات إحكامها وانسجامها، ليخلص إلى أن نمو النص "تحكمه علاقة التفاعل سواء كانت صراعية أو تعاونية ... وطبيعي أن يتغلب في حالتنا هذه التعاون والامتثال".

وكمثال على المرحلة الثانية اختار آيات تحريم الخمر وآيات الطلاق والميراث.

إن ما يقف وراء هذا التناول، اعتبار النّص عملية لها بداية ووسط ونهاية، وجوهر العملية هو التفاعل بين المتكلّم والمخاطب، وبنفس الطريقة راح يبرهن على رفض النّسخ في الآيات المنفصلة (كما في تحويل القبلة وتحريم الخمر ومبدأ فرضية القتال).

وهكذا انتهى مفتاح إلى أن القول بالنسخ الإبطالي ينتهي إلى نفي الانسجام عن النص القرآني، وكان قوله جزافا، إنما وظف أدوت علم النص الحداثية ليصل إلى أن الكثير مما ادعي فيه النسخ يمكن تأويله حفاظا على جناب القرآن الكريم.

كان مفتاح كثيرا ما يوظف آليات ومصطلحات مختلف العلوم، إذ "ابتنى مشروعه النّقدي كلّه على أساس الاستعانة بالعلوم ومناهجها ومفاهيمها، وخاصة "البيولوجيا" (...) لقد وظّف مفتاح في "دينامية

النّص" مفاهيم بيولوجية كثيرة، أبرزها "الدينامية" التي تعدّ مقولة جامعة لعديد من المفاهيم البيولوجية الفرعية كالنمو والحوار والصراع والحركة والتناسل والسيرورة والانسجام... وعلاوة على هذه المفاهيم، استعان الرجل بمفاهيم أخرى فيزيائية (كالتشاكل) ومعلوماتية (كالذاكرة) ورياضياتية (كالشكل الهندسي)... ولكن الغلبة كانت – دائما– لمفاهيم البيولوجيا التطورية"[32].

ونحن لا نعجب من هذا الصنيع عنده، وهو الناقد الذي يؤمن وينادي "بكسر الحواجز بين العلوم الإنسانية والعلوم البحتة ويدعو إلى ضرورة انتفاع النّقد الأدبي العربي بالعلوم المعاصرة ومناهجها ومفاهيمها"[33]، فالتقدم في العلوم الإنسانية، في نظره، رهين بالتقدم في العلوم البحتة، في تجل واضح لحضور الوعي البيني عند هذا الناقد الفذ رحمه الله.

خاتمة

نسجل ختاما أن قضايا علوم القرآن الكريم قد تناولها الدارسون بالبحث متوسلين مناهج مختلفة بين التي تستند إلى مقاربة تراثية، والتي تعتمد الأدوات الحداثية، وليس كل تناول حداثي للمنظومة التراثية يستهدف نقضها، إنما يمكن أن يكون الدافع المنافحة عن كلية من كليات الدين، وان اختلفت الوسائل، أما النتيجة فهي خدمة تراث هذه الأمة وبيان محاسنه.

إن قضية النسخ في القرآن الكريم يمكن تناولها بغير المنطلق الأصولي الذي عهدنا قراءته في كل محفل تثار فيه هذه القضية ومثيلاتها، وإن عمل الناقد محمد مفتاح في كتاب دينامية النص دليل على هذا، وكانت نتيجة هذا الاختبار المنهجي لهذه المبحث الأصولي موافقة لقول قديم في المسألة كان يعد شاذا، وإن كانت له وجاهته.

إن محمد مفتاح رحمه الله يعتبر بحق من رواد هذا التوجه في النقد العربي المعاصر، من خلال أغلب مؤلفاته، وعمله في دينامية النص كله تنظير لهذا وتطبيق على نصوص الشعر والنثر والقرآن، أثبت في مختتم عمله جدوى نظريته في التعاطي مع النصوص، وقد تعامل مع قضية النّسخ في القرآن، كمادة يثبت من خلالها ما ذهب إليها في فصول سابقة، موظفا أغلب المفاهيم النّصية والسيميائية كالسياق والمقصدية والتشاكل والمشابهة، دون أن يدير الظهر لتراثنا اللغوي والأصولي.

1 الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، 2001 دار المعرفة، بيروت، ص29

2 الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، ج1، ص10-11-12

3 جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، د ت، طبعة أوقاف السعودية ، الرياض، ج1، ص17

4 الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، 1976، دار المعارف، مصر، ص75

5 حبيب مونسي: **المشهد السردي في القرآن الكريم**، ط1،(الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 2008)، ص4-5

6 الزحيلي، محمد مصطفى، الوجيز في أصول الفقه، 2006، دار الخير، دمشق، ص225-226

7 الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، 2004، دار المعرفة، بيروت، ج3، ص 75

8 هو محمد بن بحر الأصفهاني صاحب التفسير.كان على مذهب المعتزلة، ووجيها عندهم. الزركلي في (الأعلام) (273/6).

9 رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، (414/1)

10 الشاطبي، مرجع سابق، ج3، ص64

11 محمد مفتاح: التحليل السيميائي: أبعاده وأدواته، حوار أجراه معه عبد الرحمن طنكول ومحمد العمري وحميد لحميداني، (مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، ع1، خريف 1987)، ص25

12 علي مصباحي، التجربة النقدية عند محمد مفتاح، (مذكرة ماجيستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، إشراف: الطيب بودربالة، 2012/2011)، ص86

13 محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، (بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008)، ، ص254

14 فريد أمعضشو: النقد المغربي والمناهج العلمية المعاصرة من الاستقدام إلى الاستخدام (محاولة لقراءة "دينامية النص" لمحمد مفتاح) https://www.arabicnadwah.com/articles/nakd-farid_amadshu.htm يوم 2019/02/12.

15 فريد أمعشضو، المرجع السابق.

16 مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي ، دراسة وصفية نقدية إحصائية في نموذجي عبد الملك مرتاض ومحمد مفتاح، (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2005)، ص239.

17 عبد اللطيف محفوظ، جمال بنحمدان/ محمد مفتاح المشروع النقدي الناجح، 2009، منشورات الاختلاف، بيروت، ص 175

18 محمد مفتاح: دينامية النص (تنظير وإنجاز)، 2006 ، المركز الثقافي العربي بيروت، ص5.

19 المرجع السابق، ص38

20 المرجع نفسه، ص45

21 محمد مفتاح، دينامية النص، مرجع سابق، ص189

22 المرجع نفسه، ص191

23 المرجع نفسه، ص191-192

24 محمد مفتاح: التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، (بيروت/ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1996)، ص05

25 محمد مفتاح: دينامية النص، مرجع سابق ، المرجع نفسه، ص196

26 عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، (دبي، دار الكتب الجديدة المتحدة، 2004)، ص180.

27 سعيد بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ط1، (مكتبة لبنان ناشرون، 1997)، ص17

28 عبد السلام ميصور: مراعاة أحوال المخاطبين في الإسلام، https://diae.net/6154/.

29 محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2010) ج3، ص300

30 محمد مفتاح، دينامية النص، مرجع سابق، ص196

31 المرجع نفسه، ص202

32 فريد امعشضو: مرجع سابق

33 علي مصباحي: التجربة النقدية عند محمد مفتاح، ص34